**المحاضرة الخامسة ؛ النقد ومفاهيمه الكبرى؛ الحوار، الذات الناقدة، الحجاج، الاختلاف :**

تماما لبيان القول تبين أن النقد ؛إنما هو مشروع فهم للأنساق الثقافية التي تقف وراء النظرية النقدية، **أي سنقوم بتحليل المرجعيات الدينية والجغرافية والعرقية التي بنت لنا موضوعا سمي بالنقد العربي.**

وعليه، فإن هذه اللاحقة "عربي" إنما تؤسس الاختلاف المطلبي الذي لا يتبين إلا من خلال الحوار، وهذا ما سماه طه عبد الرحمن "بالحوار النقدي" والذي لخصه في أربعة قضايا مهمة: " أولاها أن بنية الكلام أصلا بنية حوارية ،وأن بنية الحوار أصلا بنية اختلاف لا بنية اتفاق، والثالثة أن الاختلاف في الرأي يتقيد في سياق الحوار لضوابط منهجية ومنطقية محددة تصرف عنه المهلكات الثلاث: العنف- الخلاف- الفرقة- والرابعة أن وجود الاختلاف في الآراء لا يضر أبدا وجود الجماعة الواحدة ،بل يكون خير مثبت لهذا الوجود وذلك لقدرته على تحريك سكون الجماعة وتقليب أطوارها وبالتالي تجديد الشعور بالمسؤولية المشتركة عند أفرادها".[[1]](#footnote-1)

والاختلاف سمة واصفة على التميز المحرِّض للإبداع، فالاختلاف ترحال دائم في عالم الخصوصية، في عالم العلامات التصنيفية للأنا/ الآخر بما عليه طبيعة الشعوب. وهذا يوجب التعارف والحوار لا القطيعة المعرفية.[[2]](#footnote-2)•••

والاختلاف بهذه الصيغة يحقق الحرية الانسانية، بل هو خلخلة للذات من خلال رؤية الآخر، أو من خلال وضع الذات في تاريخها الطولاني، للبحث في مناطق النسيان، إعادة ربط الكائن بوجوده ،من خلال تمكين النصوص من لعب دورها في الحوار النقدي الخلاق ،إلى استعادة الذات ثقتها لاستئناف القول الإبداعي.

وهذا لا يتم إلا بالبحث في نظام الممارسات الذي أدَّى إلى تشكيل بؤر التمركز الكلية، لأن البحث إنما يتضمن بالأساس ما تحدث عنه جاك دريدا في حديثه عن "القوة والدلالة"حين قال: "ولكن البنية لا توجد فيها فقط الشكل والعلاقة والتشكل، ولكن يوجد أيضا التضامن بين العناصر والكلية التي هي دائما شاخصة، إن المنظور La perspectiveفي النقد الأدبي بحسب تعبير جان بيير ريتشارد تساؤلي وكليانيInterrogative et Structurale.[[3]](#footnote-3)

إذا الغاية هي الكلي المقصود به النظام التساؤلي / النقدي انشغالاته ومن ثمة الأسس والبنى الخلفية التي تضخُّ هذا الخطاب النقدي القائم في أس السؤال المسؤول المختلف ،لأنه قوام التعرف التي تنماز به الخصوصية العربية الاسلامية للحوار و روح النقد ؛ الأخلاق هذا اللاهوت الغائر في طبقات العبارة النقدية العربية.

فالحوار قدر المتكلمين، فلا يوجد الحوار إلا حيث الاختلاف فإذا: "أنزل الخلاف منزلة الداء الذي يفرق، فإن الحوار ينزل منزلة الدواء الذي يشفي منه"[[4]](#footnote-4) ،و الحوار والاختلاف وجهان لعملة واحدة "فالأصل في الكلام هو الحوار"[[5]](#footnote-5). و"الأصل في الحوار هو الاختلاف".[[6]](#footnote-6)

وحينما نرجع إلى المعاجم نجد أن الحوار يحيل عموما إلى إلى مصطلح إغريقي اDialogos الذي يعنى "المحاورة أو المحادثة"[[7]](#footnote-7)Etretien et Discussion والحوار من الحوارية Dialogismeالتي منظريها هما ميخائيل باختينM. BakhtineوفولوشينوفV.N. Volochinov وعموما فالحوار هو المحادثة التي تكون بين طرفين أو أكثر، يحيل على فكرة التبادل والاستعمال ،ذلك أن أي حوار بين طرفين يؤدي إلى استعمال أو تبادل الألفاظ واحترام قواعد الكلام.[[8]](#footnote-8)

وعليه فإن الحوار فاعلية بشرية من أجل بناء العقلية الاختلافية، ذلك أن المتحاورين يقصدون أساسا إلى كشف الحقيقة، والحوار نوعان :إما أن يكون حوار اتفاق ،أو حوار اختلاف، فأما الأول فهو الذي يشيع المطابقة بين العارض والمعترض.وأما الثاني فذلك الذي تخالف فيه المتناظرين .

وأما الحوار الاتفاقي فهو الذي يؤدي إما ؛لحصول آلة المحاجة للمتخاطبين من حصول المغالبة لأحدهما؛ إما على سبيل قوة الحجة، وإما على سبيل حجة القوة.

وأما قوة الحجة فتعني :تفاوت في طبقات المتحاورين نتيجة الفرقة الحاصلة غالبا بين المتخاصمين، وأما حجة القوة ذلك يعني: التماس الحجة بالعنف، والخلاف المفضي إلى الحرب، هذا الأمر يؤدى إلى تفاقم التفاعلات الحوارية، نتيجة اختلاف المطالب وعدم التناسب بين الفرق، وهذا ما عرف أصلا في تاريخنا الإسلامي بالمناظرة وهي:

"المحاورة بين فريقين حول موضوع لكل منهما وجهة نظر فيه تخالف وجهة نظر الفريق الآخر، فهو يحاول إثبات وجهة نظره وإبطال وجهة نظر خصمه، مع رغبته الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره".[[9]](#footnote-9)

إذا، الحوار حامل لروح انتقادية لأن الاختلاف يؤدي إلى نقد متبادل العارض والمعترض ولعل الحوار بهذا المعنى حامل لعدة خصائص:

- للحوار نزوع انتقادي.

- للحوار نزوع حجاجي.

- للحوار نزوع اختلافي.

والحوار لا ينضبط إلا بوجود الحجة، هذه الأخيرة تختلف بحسب مراتب الحوارية، الحوار، المحاورة، التحاور. ويبنى الحوار النقدي على الاقناع من خلال الاعتراض على حجج الخصم لذلك نجد: "الحوار النقدي هو الحوار الاختلافي الذي يكون الغرض منه دفع الانتقادات -أو قل الاعتراض- التي يوردها أحد الجانبين المتحاورين على رأي -أو قل دعوى- الآخر بأدلة معقولة ومقبولة عندهما معا".[[10]](#footnote-10)

لأن الحوار النقدي إما أن يؤدي إلى دفع الخلاف؛ وإما أن يؤول إلى وقوف كل طرف إلى حجته على سبيل الاقتناع أو الاكتفاء بما لديه لاختلاف الملل والنحل بمعنى: "أنني لست مجبرا على أن أتفق مع مخاطبي في كل ما نتنازع فيه، وبذلك فحقه في الاختلاف معي يضمن له الإبقاء على الأشياء غير المتفق عليها سواء تعلق الأمر بالرأي أو المذهب ،وفي مثل هذه الحالة يشكل التفاعل الحواري المسلك الأفضل للوقوف على مكامن الاتفاق والتباين فبواسطته نتدبر اختلافاتنا أفرادا كنا أو جماعات ،وعبره كذلك أظفر بحقي الشرعي في الاختلاف مع غيري".[[11]](#footnote-11)

وعليه فالحوار إذا لم يؤدي إلى الاحترام المتبادل، أدى إلى الصدام والشقاق، لذلك يضع طه عبد الرحمن الاختلاف النقدي ضد العنف يقول: "أما الاختلاف في الرأي داخل دائرة الحوار النقدي، فلا يندفع أبدا بواسع القمع، إن ممارسة القمع قد تزيد في حدة هذا الاختلاف لا سبيل إلى الخروج منه، نظرا لأن الطريق الموصل إلى هذا الخروج إنما هو طريق الإقناع (ذلك) فالإقناع والإقماع ضدان لا يجتمعان".[[12]](#footnote-12)

وعليه فالحوار الذي نتوسل به في عرض أنساقنا الثقافية يكون ضد المبدأ اللينيني الذي كان شعاره "العنف أداة الاقناع" وفيه:" نجد أن الانزلاق إلى تبني العنف والتنظير له في نظريات القوة في حضارات العنف والسيطرة يتأسس في العمق على ثلاثة أسباب:

- إما عدم قبول الآخر؛ أي السعي إلى نفيه وبالتالي إتاحة استعمال القوة لمحوه من الوجود محوا ماديا.

- وإما عدم قبول الاختلاف معه، مما يعني صهره وإدماجه وإرهاقه والضغط عليه وتنميطه لمحوه معنويا وربما ماديا في حالة التمنع.

- وإما الجهل بطبيعة الإنسان، من حيث الظن بأن الطبيعة تقتل القهر وتتقبل التخلي عن المبادئ والمثل، وتحويلها تحت ألوان الضغط والقهر".[[13]](#footnote-13)

ومن أجل حصول التفاعل التبادل البيني على مستوى حضاري ضابط ، أن ينضبط الحوار الاختلافي النقدي بضوابط مهمة ترتكز أساسا على مبدأين:

- الحرية في الرأي والنقد.

- الخيار في دفع الحجج النقيضة بحجج أخرى تتلاءم والصفات التي تميز المحاور.

ولعل هذه الضوابط تجنب المتحاورين سبل المصادرة ،والمحاصرة حتى لا يصبح أحد المتحاورين مخبوء في جبَّة الآخر، هذا الأمر الذي يؤدي إلى الاحتكار الذي يستحيل حتما إلى العنف ،إما بدعوى عدم كفاءة الآخر، أو قصور عقله أن يكون ندّا للمحاور ،كلما ابتعدنا عن احترام وتقدير خصوصية الطرف النقيض كلما اتسعت دائرة المحاصرة ومن ثمة الإلغاء.

ولعل هذا الأمر الذي انقادت له الثقافة العربية في نظر البعض، تحولت إلى الانكماش على الماضي، لكونها فقدت السمة الحوارية، نتيجة لتقزيمها استعماريا وفق قانون "المغلوب مولع بتقليد الغالب"، ثم إن الجماعة المحاورة لم تتوسل بأدوات الحوار، بقدر انكفائها على ذاتها ثقافيا واكتفائها بالخزين التاريخي، ورفضها لمبدأ الحراك الحواري الاختلافي النقدي الذي يؤدي إلى استئناف القول الحضاري و الإبداعي .

هذه الفعالية الحوارية تنبني على منطق سؤال / جواب وفيه: "نستحضر مختلف التفاعلات الممكنة بين مختلف أطراف الحوار ،بحيث يعمد كل مشارك إلى توضيح حجته ،اعتمادا على النقاش التساؤلي وبالتالي يتحدد دور المقاربة الحجاجية في شرح ما يحمله كل من السؤال والجواب في سياق حجاجي انطلاقا من تفكير نقدي حجاجي ،وهو ما جعل إريك كرابل يعتبر الحجاج النقدي أحد الأركان الأساسية في النظرية العامة للحجاج شأنه في ذلك شأن منطق الحوار".[[14]](#footnote-14)

علمنا أن الحجاج يقع في قلب الممارسة الحوارية لأن أساس الحجاج Argumentation في منظور بعض الاتجاهات التداولية هو الحوارية وما تتطلبه من عمليات حجاجية تتنوع وتتباين تقنيا بتنوع وتباين أنماط التحاور ومراتب الحوارية[[15]](#footnote-15).ولكي نحصر نوعا ما مفهوم الحجاج، فإنه لا مناص من مقابلته مع الحجه والاستنتاج Prouver et déduire.

الخطاب الحجاجي ليس خطابا مرماه التطرق للكلام عن الأدلة ،وليس خطابا يهتم بالمبادئ المنطقية كعملية استنتاج، أو بتعبير أنا أحاججargumenteoلايعني أن أبرهن على اثبات حقيقة ما، ولا أن أبين الطابع المنطقي le caractère logique الحصيف لعملية النظر أن أحاجج أن أدلل على كل الأسباب والحقائق لهذه النتيجة أو تلك إذن إن الحجاج علاقة بين حجج ونتائج".[[16]](#footnote-16)ما معناه : "الاستدلال الحجاجي يرتبط أساسا ؛بالجدل والمناقشة أو بالمواجهة بين الأفكار والأطروحات والدعاوى".[[17]](#footnote-17)

**وهذا الذي تسلكه هذه الدراسة باعتبارها فعالية حوارية تنطلق اتجاه تجديد وصل الذات بموروثها من كون أن هذا الموروث يختزن داخله عقول مختلفة تحاول أن تخترق اليقين الذي يختزنها من تأسس عقل حواري/تواصلي يقف للند مع العقول الأخرى المساوقة له حضاريا**.

إن عمل العقل الحواري مزدوج في اتجاهين:

- تأهيل الذات بأن تصبح لها الفعالية الكاملة لتدير نفسها لتنخرط في التجديد من خلال استنهاض الذات الناقدة.

- اقناع الآخر بإمكانيات الأنا التواصلية في استنبات أساليب جديدة تتلاءم والمقتضى الراهني وتتجاوز العوائق والآفات الهادمة للتمييز الإبداعي للنقد.

وهذا النزوع يهدف أساسا إلى تحقيق الكفاءة الحوارية للذات الناقدة، واشتغالها في مجال تداولي يهدف أساسا إلى تحقيق التفاعل والتواصل مع الأنساق الكلية للإنسان، هذا التقريب نتجاوز به النظرة التجزيئية القاصرة على الإجراء .ومن ثمة تحقيق الكلي المشروعي بتجاوز الذات آفات التثبيط من كونها ترتكز على جدالة صلبة من الأنساق والمرجعيات التي تحقق فاعليتها الزمنية، وليس فقط لكونها ذات تقع في مجال أوسع منها، كما يقول بعض الباحثين الذين يشعرون بإفراغ الذات ،يتحول الحوار الفاعل ،إلى حوار مشوه من كون الذات غير قادرة على تحقيق تميُّزها لكون أنساقها ومرجعياتها مستعارة نتيجة ما قلته سابقا، حين يحصل الاستلاب الكلي للذات نتيجة الشعور بالمغالبة، لأن الخصوصية الثقافية لا يمكن التخلي عنها كما يقول أدونيس: "مهما انفتحت الذات على الآخر تفاعلا وتبادلا تظل لها خصوصيتها التي تميزها عنه ،بعبارة ثانية، مهما انتقلت لابد من أن تظل مختلفة أن تكون :هي هي"[[18]](#footnote-18)

إن دعوى إفراغ الذات من أنساقها لتحشوها أنساق أخرى ،يعد ضربا من النكوص و الضعف ،ولعل هذا الفخ وقعت فيه أساسا مطارحة طه حسين نتيجة عدم إثارة السؤال النقدي ،لأن كان الغرب عندهم في صورة المخلص ،لذلك لم تكن دعوى الإختلاف النقدي تثير فيهم الحصانة النسقية ،لأنها فقدت فاعليتها حين أصبحت تلك الأنساق المرجعية في مواجهة الغرب ،لأنها اقترنت عندهم بالجمود ،واقترن الغرب بالأستاذية، هذا الاعتماد على الآخر أدى إلى: "تجاوز الأنساق الثقافية(...) وبما أن الغرب قد أفلح في تحقيق تقدم مشهود لاخلاف حوله من ناحية علمية وصناعية وكل ما يتصل بها (...) وبذلك تم تجريد الغرب من بعده التاريخي المباشر ،وهو بالضبط ما حققته المركزية الغربية"[[19]](#footnote-19) ،لذلك لجأ الباحث العربي في استخراج الأسباب التي تجمع الشرق والغرب لإحداث المقايسة المطلوبة لتحقيق التطور،والحراك المطلوب .

وعليه؛ واحتكاما لرأي طه حسين الذي أكد أن تحقيق الوعي الحضاري ينطلق من بديهة أساسية وهي أن: "نتعلم كما يتعلم الأوربي ونشعر كما يشعر الأوربي لنحكم كما يحكم الأوربي ثم لنعمل كما يعمل الأوربي ونصرف الحياة كما يصرفها"[[20]](#footnote-20). بل لم يقف طه حسين عند هذا الحد فيما يدعيه عبد الله إبراهيم،بل اصطنع سياقا ايهاميا بعدما سلخ الإنسان العربي من مكوناته النسقية التاريخية حينما قال: "لو أردنا أن نحلل العقل الإسلامي في مصر والشرق القريب، افتراه ينحل إلى شيء آخر غير ضده العناصر التي انتهى إليها بول فاليري"[[21]](#footnote-21)وهي حضارة اليونان، حضارة الرومان والمسيحية.

لقد جعل طه حسين بهذا القياس العربي فارغا ناضبا نتيجة عدم حصول الفعل النقدي للآخر بل عدم تصفيته أيضا لأن المقايسة والمماثلة هي أفسد الآليات التي يستخدمها العقل حين تنسحب الملكة النقدية/ملكة الحكم.

وبالتالي؛ غيبتمعرفة الذات لعدم حصول الانضباط الحواري مع اتساقها هذا الذي أدى إلى حصول غياب معرفي عربي لذلك يقترح علينا أدونيس: "أن نحلل أركيولوجية هذا الغياب –ونستعير هنا مصطلحا يعرفه الجميع هو المهمة الرئيسية كما أرى للعاملين في ميادين الفكر المتنوعة، فالسؤال الملح هنا ليس: كيف نخرج من هذا الغياب (...) وإنما السؤالالملح هو: لم هذا الغياب؟ فلابد لكي نخرج من نعبر مسافة...أعني لابد من أن نستوعب هذا الغياب وأن نتمثله نقديا –معرفيا- حينذاك تنبثق مسألة الخروج من هذه المسيرة المعرفية، النقدية ذاتها"[[22]](#footnote-22).

والحوار الذي –قصدته- هنا مزدوج[[23]](#footnote-23)\* حتى يتم التعرف على الأنساق التي تقف خلف الراهن النقدي العربي المنهك ، هذا الحوار نعود فيه في شِّقه الكلي على ما سماه عبد السلام المسدي بالتضافر المنهجي الذي حاصله العودة على الأسئلة القلقة التي: "هي أسئلة تتعدد ،ولكنها جميعا ترتد إلى سؤال واحد، هو سؤال كل المقدمات ،لأنه السؤال المستعاد يتكرر منذ البدايات بلا ملل وبلا استنزاف: نحن والآخر"[[24]](#footnote-24)

فالحوار بما هو فعالية عقلية يُمكِّننا من تجاوز العوائق الابستمولوجية ،والآفات المختلفة التي أدت إلى انتكاسِ المشروع النقدي العربي، ومن ثمة التدليل على الإمكان الراهني/اللحظوي الذي يستغرق الاستلزام الحواري مع الآخر ،لإعادة اكتشاف المعوقات التاريخية ،من اللحظة التي تستطيع أن تجد فيها الذات العربية مكانتها الحضارية لتكون في المنزلة نفسها مع الآخر، هذا الذي يؤدي إلى التعارف الممكن من المعرفة الكلية لممكنات الذات الحوارية.

1. - طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، ص 46. [↑](#footnote-ref-1)
2. القطيعة المعرفية سمة أساسية في الفكر المعاصر ، وهنا نفرق بين الحاجة العمومية و الحاجة العلمية ، حيث تسود المعرفة العامة ميكانزيمات التواصل و تنقطع في الحاجة الثانية ذلك ان أشكال التنظار بين العلوم العلمية و الإنسانية متفاوتة من جهة التواصل و اللاتواصل فالنسق العلمي متسم فيما يتصور غاستون باشلار بالإنغلاق يرفض باب الاجتهاد ، على خلاف التوجه في العلوم الإنسانية فهو نسق مفتوح على السياقات المختلفة .يراجع في هذا الأمر كتاب .محمد هشام ،تكوين مفهوم الممارسة الابستمولوجية عند باشلار .افريقيا الشرق الدار البيضاء ،ط1 ،2006.أوــــــــ عمر مهيبل . إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة ، الدار العربية للعلوم ،منشورات الاختلاف ،بيروت /الجزائر ، ط12، 2005.الفصل الأول .••• [↑](#footnote-ref-2)
3. - Jacques Derrida, L'écriture et la différence, Edition Seuil, p.12. [↑](#footnote-ref-3)
4. - طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 20. [↑](#footnote-ref-4)
5. - طه عبد الرحمان، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، ص 27. [↑](#footnote-ref-5)
6. - المرجع نفسه. [↑](#footnote-ref-6)
7. - Patrik Charaudeau , Dominique Maingueneau. Dictionnaire D'analyse du discoure, Editions seuil , paris, 2002, page. 178 [↑](#footnote-ref-7)
8. - Ibid, p.p 179- 180. [↑](#footnote-ref-8)
9. - عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة (أصول الاستدلال المناظرة) دار القلم، دمشق، ط8، 2007، ص 371. [↑](#footnote-ref-9)
10. - طه عبد الرحمان، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، ص 33. [↑](#footnote-ref-10)
11. - حسان الباهي، الحوار منهجية التفكير النقدي، افريقيا الشرق، الدار البيضاء ،ط1، 2004، ص 12. [↑](#footnote-ref-11)
12. - طه عبد الرحمان، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي.ص: 33. [↑](#footnote-ref-12)
13. - سعيد الكوراني، نحو تجديد الخطاب الديني (تأسيس البنية الحوارية وحق الاختلاف ) ،منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط 2007، ص 158. [↑](#footnote-ref-13)
14. - المرجع نفسه، ص 151. [↑](#footnote-ref-14)
15. - جبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي( عناصر استقصاء نظري)، مجلة عالم الفكر المجلد 30. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، ص103. [↑](#footnote-ref-15)
16. - j. Moeschler, Argumentation et Conversation (Elément pour une analyse programmatique du discours),Editions Hatier,paris 1985, pp 46 , 47. [↑](#footnote-ref-16)
17. - حبيب أعراب، المرجع السابق، ص: 119. [↑](#footnote-ref-17)
18. - أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف) دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت ط1، 2002، ص34. [↑](#footnote-ref-18)
19. - عبد الله ابراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة،(تداخل الأنساق و المفاهيم و رهانات العولمة ) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء / بيروت ، ط1 ، ص 17. [↑](#footnote-ref-19)
20. - عبد الله ابراهيم، المرجع نفسه، ص 17. [↑](#footnote-ref-20)
21. - المرجع السابق، ص 18. [↑](#footnote-ref-21)
22. - أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف)،ص 6. [↑](#footnote-ref-22)
23. \*أولا حوار الناقد مع التراث، حوار الناقد مع الراهن الجديد، والوقوف على أسباب عدم انضباط النظرية النقدية العربية. [↑](#footnote-ref-23)
24. - عبد السلام المسدي، الأدب وخطاب النقد، دار الكتاب الجديد المتحدة ليبيا، ط1، 2004، ص 7. [↑](#footnote-ref-24)